المقالة الاستهلالية لأبحاث نظرية التفكير اللغوي الثورية

للدكتور ياسر حسن

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد والظاء وغيرها من الألسن التي هي كلّها آيات ربّنا الجليل سبحانه، "وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده" بلسانه الخاصّ!

أمّا بعد! فأتشرّف أوّلا بالتواصل مع إدارة هذه المجلة المباركة وعلى رأسها حضرة الأستاذة الفاضلة الدكتورة مريم الحجازي، والتي لا تألو جهدًا في دعم العربيّة ومبادراتها. ثمّ أتشرّف بعرض كتابي "التفكير اللغوي" في سلسلة أبحاث في المجلّة، شاكرًا الأستاذة الدكتورة الحجازي على ثقتها ودعمها للاتّجاه العام التجديدي للكتاب، من غير الموافقة بالضرورة على جميع رؤى النظرية، وتحقيقاتها، ومقارباتها، وحلولها.

الفكرة والموضوع والإشكاليّة

تتمثّل القضيّة الكبرى التي تثيرها نظرية التفكير اللغوي في استبدال "العقليّة اللغوية" البانية للغة ب "العقليّة النحوية" الحارسة! رجوعًا باللغة إلى "قالت العرب" لا "قال النحاة"! بل وإلى مقصد نشأة النحو ذاته قبل اكتماله علمًا! في مقاربة وظيفيّة، عمليّة، معنويّة تتوخّى المبنى، لا بنيويّة تنشغل بالمباني عن المعاني! محوّلين الدرسَ النحويّ إلى اللغويّ، ومغيّرين تعليمَ النحو كعلم له خصائصه وتأسيساته ومصطلحاته التقنية التحليلية إلى دُربة اللغة، والمادّة اللغوية! مع اكتشاف عجيب وذو أثر خطير، وهو البنية الفصيحة في فطرة العرب (العوام)، وما يقابلها من لسان غير العرب! مع البحث عن مناهج خاصّة للأغراض الخاصّة في دراسة العربية.

الأهميّة

إزالة جميع العراقيل الذهنيّة والنفسيّة من طريق "دارس اللغة" غير الناطق بالعربية، و "مكتسب اللغة" الناطق بها! لأنّ بينهما فرقا كبيرا حسب "نظريّة العوامّ الفصحاء والبلغاء أصلا"! من الكتاب. والتخلّص من كمّ هائل من "العلم غير الوظيفي"، والتخلّص من كمّ كبير من الجهد الذي كان في "طريق غير

عملي"!

مع اكتساب لغويّات مهمّة جدا كنّا عنها غافلين! كما في علم المعاني ولغويّات أصول الفقه!

الأهداف

تأسيس مناهج لتعليم سيّدة اللغات بمنطق ثوريّ، جديد كليّا. وتكون بعدد لغات الأرض بحسب "نظرية استغلال لغة الدارس" من الكتاب! وتحويل منهاج العربية للعرب إلى مجرّد: "قل ولا تقل"! بحسب "نظرية العوامّ الفصحاء والبلغاء أصلا" المذكورة!

المنهج المتّبع

مجموعة من أدوات التفكير "التحقيقي" و "التجريدي" و "التجديدي"، وما تمهّد له من الإبداع الذي يصل لدرجة "التفكير الثوري" في كسر القوالب والنمطيّات المعيقة، وتطبيق هذه الأدوات على منهاج النحو، والتغيير تبديلًا أو حذفًا، تبعًا لذلك.

النتائج

ثوريّة في اختصار الجهود والأوقات، مع اكتساب علوم لغويّة جديدة مهملة، مصنّفة بطبيعة الحال خارج النحو! وما يتبع هذا التسهيل الخارق كذلك من الراحة النفسية الكبيرة الدافعة للتعلم.

وكما سنرى في الحلقات القادمة بالتفصيل كيف أن رؤى هذا التفكير اللغوي ونظرياته، سواء منها التحليلية لتشخيص مواطن العلل، أو التطبيقية لمعالجة هذه العلل، لم تصدر إلا عن (الغيرة الواقعية) على الحال التي آلت إليها العربية حتى بين أهلها! وهي تنعكس لا محالة على الناطقين بغيرها. ذلك أن المناهج التي توضع لهؤلاء تبقى ضمن "المنظومة النحوية العامة"، إلى الدرجة التي يريد أحد مبرّزي طلابها – وكان مطربا بريطانيا قبل أن يهتدي – يريد أن يستأذنني في مغادرة بيتي في دمشق دون أن يشرب الشاي قائلا: "نحن مستعجلين"، فأصحح له" بل مستعجلون" فيصرّ على رأيه على أنه منصوب على الاختصاص، غافلا عن المعاني! وهل اللغة شيء غير المعاني؟

وأقول هنا (الغيرة الواقعية) لأن ما نراه ونواجهه من صلابة تقاوم التجديد والتغيير يصدر كثير منه عن (الغيرة المثالية)! وهي غيرة يمكننا تشبيهها بغيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله في أمثال مواقف "صلح الحديبية" في صدورها عن الظواهر الشرعية لا البواطن! أو فلنقل في تأثّرها بالفروع الفقهية

(الفتوى) أكثر من خضوعها للقواعد الكلية (الحكم)! وذلك بالطبع قبل أن يتكامل علمه بتعليم النبي صلى الله عليه وسلم.

وإنه لا بدّ أن يتملّككم العجب حينما تعلمون كيف أن التحقيق قد أدّى إلى أن ينقلب أحد الطلاب الجدد في دورة لتعليم العربية في لندن من المطالبة المتوقعة بأن يُعطى الطلاب فرصة للكلام ولو لدقائق قليلة، إلى أن يُصدم بجواب زميله المباشر " we don't speak Arabic"! ثم إلى أن يقول لصاحب هذه النظرية: " I am entirely with you"!

وإن كثيرا من المقاصد المقدّسة تجرّ التقديس معها في الأذهان غير التحقيقية إلى أدوات هذه المقاصد! فيبدأ الجمود من هذه الأوهام، ليتقوّى بتلك الغيرة والعكس صحيح.

بل إنه سيظهر لكم بإذن الله كيف يتجلّى بمزيد الاطلاع صحة قول العلماء "من اتسع علمه قلّ إنكاره"! وهذا في الشرعيات المقدسة، فما بالك بما دونها من آلاتها كالنحو واللغة التي يقول فيها أحد أكابر علمائها وهو أبو عمرو بن العلاء:" لقد تعددت وجوه العربية حتى لقد خشيت أن آخذ على لاحن لحنا"!

وثمة قواعد في أوليات العقل يجب علينا أن ندركها، وهي من ضمن مهارات التفكير الأساسية كالمقارنة! فكثيرا ما يكون حتى النخب العلمية مأخوذين بجانب واحد فقط، مصرين عليه مهما رأوا من أضرار، لأنهم ينظرون إلى ضرر الجانب الآخر وحسب، دون القدرة على إجراء هذه المقارنة بين الجانبين! تأتيهم مثلا بنظريات ثورية في الطب لتحسين الصحة بشكل خارق، فيحسبون لك عدد الوفيات بالآلاف التي يمكن لتلك النظريات أن تتسبب بها، دون القدرة على رؤية أن تلك الآلاف هي أهون الشرين بالنسبة لعشرات الآلاف في الطرق التقليدية المتبعة المتداولة!

وسترون بإذن الله (في المقالات القادمة) كيف أدّت الرؤى التحقيقية إلى سهولة عظيمة في تعليم العربية دون الإخلال بعمق هذه اللغة العظيمة.